٩

شعر الشكوى
بين النص ووثيقة العصر

يجب أن نسلم بأن النظم واللوائح والمؤسسات المالية والإدارية التي توجد داخل كل مجتمع من المجتمعات إنما هي ناحية من النواحي الاجتماعية التي ربما تتوافق أو تتناقض مع بعض الأفراد أو الجماعات مما يدفع البعض إلى مواكبة مثل هذه المؤسسات بالتأييد، أو إلى المجاهرة بالشكوى والتنديد .

وقد ظهر هذا اللون بشدة في عهد الأمويين ، كما حدث حين عهد هشام بن عبد الملك بولاية العراق إلى خالد القسري ، وكان معروفا بعصبيته الشديدة لليمنية ضد المضرية ، فاضطهد تميما وقتل نفرا من أعلامها ، وهذا ما دفع الفرزدق إلى هجائه الشديد له ، بل ويلمز بالإضافة إليه سيده هشام بن عبد الملك ، لأنه هو الذي أعانه على هذا البغي حين حكمه في مصائر العراق . (٦٧)

وقريب من موقف الفرزدق هذا وعلى نفس شاكلته نجد موقف الراعي النميري من عبد الملك بن مروان من عماله وجباة ضرائبه ، ممن كان يبعث بهم إلى القبائل بين الحين والآخر ، فيسومونهم سوء المعاملة ، وينتزعون من أموالهم وحقوقهم ما يجعلهم – دوما – يصرخون – كما نجد عند الراعي النميري – بالشكوى المريرة إلى الخليفة حين ذاك ..

ومن ثم اعتبرت هذه القصائد وما على شاكلتها نصا ووثيقة على ظلم الولاة والعمال على الأمصار . وقد يبدو للوهلة الأولى أن مثل هذا النوع من شعر الشكوى أمر خاص بالرجال أو بالشعراء من الرجال، إلا أن السيوطي أورد في نزهته ما يبرهن على اقتحام المرأة لهذا الفن الشعري ، مما يدل على قوة عدستها لكل ما يحيط بها في المجتمع ، فصارت لسان حال الناس ، أو الأسرة ، تجسد قيمة المعاناة، ومدى الفقر الشديد التي تعيش فيه ، وفيه أسلوب لاذع السخرية من تصرفات الأمير حيال شعبه ، ورفضه لهذا التدرج الطبقي داخل المجتمع، لدرجة أوصلت الشاعرة من خلالها فن الوصف بقالب تصويري للحالة التي يعيشون عليها (بالخنافس) التي تبحث عن أقل الأشياء لكي تعيش منها ، وتظل حية من خلالها ، وهي أبيات على الرغم من قلة عددها إلا أنها تعبر عن انتشار الظلم والفساد ، وضيق الأنفس بأخلاق الخلفاء ، وأن الشعر لم يكن شعر بلاط فحسب ، كما أن الأبيات تجسد إهدار الخلفاء للأموال في قصورهم وطريقة معيشتهم..

تقول الحجناء بنت نصيب : (٦٨)

أمير المؤمنين ألا تـــرانا

كأنا من سـواد الليل قير

أمير المؤمنين ألا تـــرانا

خنافس بيننـــا جُعـل كبير

أمير المؤمنين ألا تـــرانا

فقيرات ووالدنـــا فقير ؟

أضرَ بنا شقـــاء الجـــد منه

فليس يميرنا فيمـــن يمير

وأحواض الخليفة مترعـــات

لها عَرَقٌ ومعروف كبير

أمير المؤمنيـــن وأنت غيـــث

يعـــم الناس وابله غزير

يُعاشُ بفضل جودك بعد موت

إذا عالوا وينجبر الكسير

إن هذه القصيدة تشكل نمطا تعبيريا خاصا معبرا عن معاناة الإنســـان في كافة النواحي الحياتية ، وتقدم مقارنة بين نمطين حياتيين أولهما حيـــاة المعاناة التي يعيشها الفرد داخل المجتمع حينذاك ، وآخرهما حياة التـــرف والبذخ التي يعيش فيها الخلفاء .

ووعي الشاعرة بخطورة شكواها ، ومدى ما فيها مـــن نقـــد مباشـــر موجه للخليفة المهدي، وعليه فقد استخدمت نمطا نكائيا فريدا في عـــرض قضيتها ، فإلى جانب الشكوى جاء المدح ، فعرضت لشكواها مغلفة بمـــدح الخليفة ، فهي ترتفع في شكواها إلى درجة من الحدة ، ثم تنخفض حـــدتها وبشكل يوحي بالانكسار والضعف أمام سطوة الخليفة وجبروتـــه ، وكأنهـــا توحي إليه بضعفها مقابل قوته .. فالقصيدة تقوم علـــى ثنائيـــة ضـــدية .. تمثلها على النحو التالي : ـ

الشكوى ـــــــــــــــــــــ المـــدح

القـــوة ـــــــــــــــــــــ الضعف

المنـــع ـــــــــــــــــــــ العطـــاء

العلـــو ـــــــــــــــــــــ الانكسار

فالمدح والقوة والعطاء والعلو يقابلهم الشـــكوى والضـــعف والمنـــع والانكسار، إنها صرخة محفوفة بالرجاء ، شكوى مشفوعة بالعطاء.. لـــذا فإن الشاعرة تحاول في شكواها أن تعتمد على البنية اللغوية المتكررة ، لما في التكرار من حيوية وديناميكية ، كما أن التكرار يخلـــق جـــوا موســـيقيا خاصا _ وكما يرى الدكتور مصطفى السعدني _[٦٩] فإن التكرار يشيع دلالة معينة ، ويعطي تقنية صوتية بارزة تكمن وراءها فلسفة القصيدة .

وفي اعتقادنا " أن التكرار في الشعر يكاد يرتبط ارتباطا وثيقا بظاهرة الإنشاد ، فكل شاعر يقصد بشعره إلى المحافـــل ، أو المناســـبات، يكـــون حريصا على أمر مهم ، وهو تبليغ رسالته عن طريق ذلك التنغيم الصـــوتي المتمثل في إعادة اللفظة أيا كانت مستخدما في ذلك الحروف الصوتية ، أو الأدوات التي تساعده في توصيل المعنى المقصود كاستخدام التكرار لصوت ما أو حركة بعينها ، أو كلمة ، أو جملة أو شطرا مـــن بيـــت فـــي أبيـــات متتالية، أو اسما يرى في ممدوحة تشـــوقا لســـماعه ، ممـــا يدفعـــه إلـــى تكراره.." [٧٠]

وقد وفقت الشاعرة في استخدام النوعين الأخيرين من خلال قالـــب بنائي واحد متكرر فقد كررت شطرا من بيت ثـــلاث مـــرات ، وفـــي نفـــس الشطر المتكرر وضعت الاسم المحبب إلى نفس المتلقي لهذا الشـــعر وهـــو الخليفة " المهدي " فعندما تكرر الشطر " أمير المؤمنين ألا ترانا " فهي هنا تصر على لفت انتباه الخليفة ليتفقد حال رعيته ، وحاولت كسر حـــدة هـــذا

الانفعال خاصة وأنها تخاطب الخليفة وهو " أمير المؤمنين " وهي صفة تبهج نفس الخلفاء على وجه العموم .

ومن ثم فقد أصبحت بعض هذه الترددات الصوتية وبما فيها من مضامين مدحية هي مفتاح النص ، وعالم دخول الشاعر إلى مطلبه .. وهذا بطبيعته يدفعنا إلى القول بأن التكرار هاهنا أصبح وسيلة جمالية يشير على المستوى الدلالي والرمزي إلى أن الشاعر – كما يرى أحد الباحثين (٧١) يريد أن يؤكد على بعض معاني بذاتها ، أما على مستوى الإيقاع والصوت فيشير إلى أن الشاعر يعتمد على التكرار رغبة في إثراء الجانب الموسيقي داخل القصيدة وعليه فقد انطلقت الشاعرة من المدح إلى الشكوى ، مع عقد لمقارنة بين حال منزل الخليفة ومنزل رعيته ، حتى يكون على وعي تام بما يحدث في حياة المسلمين وصفوفهم ..

إن الشاعرة هنا تسطر سجلا خالدا لبراعة المرأة ودقتها في تبليغ شكواها كما كان يفعل من سبقها من الشعراء ولتؤكد على أن صوت المرأة يمضي جنبا إلى جنب مع صوت الرجل .

١٠

غزل المرأة
بين القيد الاجتماعي والنازع النفسي

استوقفني كثيرا هذا الكم الوصفي في الشعر من قبل الرجل للمـــرأة، وما حظيت به من مكانه مرموقة على المستوى الاجتماعي .

ومن ثم كان السؤال ألم تستطع هذه المرأة العربية أن تعبر ولو بجزء بسيط عن مشاعرها ؟

وإذا كانت الإجابة بالإثبات فأين ذلك الشعر ، أما إذا كانـــت بـــالنفي فكيف نفهم قصص العشق العربية دون وجود لها ؟

فهل هناك قصة مكتملة الجوانب والأركان من طرف واحد ؟ أعتقد أن كثيرا من هذا القصص يعتمد في المقام الأول على العنصـــرين الأساســـيين الرجل والمرأة على حد سواء ، وفي آن واحد .

وعليه كان البحث عن المرأة الشاعرة من خـــلال الجانـــب الغزلـــي واضعين نصب أعيننا أن ثمة قيودا اجتماعية قد حرمت المرأة من التعبيـــر عن ذلك صراحة ، إلا أن النوازع النفسية لدى المرأة جعلتنا تخـــرج عـــن كبتها فأطلقت العنان لنوازعها النفسية معبرة عن مكنوناتها النفسية تجاه ما يخالجها من لحظات عاطفية معبرة عن الموقف الراهن الذي عاشـــت فيـــه المرأة حينذاك واضعة نصب أعينها ذلك الموقف الرافض من قبل المجتمـــع فجعلت لغة الإشارة ولغة العيون هي العنصر الأساسي في غزلها .

وأول ما يطالعنا في هذا الصدد ما يمكن أن تطلق عليه بالنموذج الاستحيائي ..

النموذج الاستحيائي : -

نقصد به النموذج المدرك لكافة القيود التي وضعها المجتمع حول المرأة فجعلها تعيش حالة من القلق والتوتر مما دفعها لاستنطاق مكنوناتها في نوع من الاستحياء أو قل الكتمان ، وبون شاسع بين الاعتراف بالشيء وكتمانه ، فالاعتراف المباشر به اصطدام بالمجتمع وقيوده ، أم الجانب الثاني ففيه نوع من التستر إلى حد ما ، وهي بذلك تحاول أن تبقى على هذا النسق البنائي لصورة المرأة في المجتمع – حينذاك – التي تتطلب نوعا من التحفظ والحشمة ، وهذا بدوره يفرض نمطا سلوكيا خاصا بها ، حتى تحتفظ لنفسها بتلك القدسية التي أضفاها عليها الرجل ، ولكي تظهر بالمظهر العف دون أن تدنس نفسها أو تقلل من عفتها وكرامتها .

وأصدق دليل على هذا الكتمان أن تضمن الشاعرة في أقوالها مباشرة، فيأتي لفظ الكتمان دليلا دامغا على ذلك .

تقول " ليلى العامرية " مجسدة ذلك أيما تجسيد ومعبرة عن ما يحدثه الكتمان من تباريح تعصف النفس وتذيب الجسد ، وذلك في قولها: (٧٢)

لم يكن المجنون في حاله

إلا وقد كنت كما كانا

لكنه باح بسر الهوى

وأنني قد ذبت كتمانا

المستتر هنا والخطاب الخفي هو أن الشعور متبادل بين الطـرفين إلا أن ثمة فارقا بينهما وهو أن الرجل مسموح له بالتصريح عن ذلـك علـى الرغم مما قد يصاب به من وراء تصريحه عدم الزواج بالمحبوبة، وهو قيد آخر على الرجل .. وفي إباحته بسر الهوى أمر خاص به ، إلا أن المرأة لا تلجأ إلى ذلك ، ووسيلتها الوحيدة هي الكتمان (وأنني قد ذبت كتمانـا) .. فالمرأة هنا تدرك أن الكتمان هو الشيء الوحيد الذي يشفع لها في تجربتها الغزلية ، ومن ثم فقد اتخذت سبيلا آخر للتعبير عن عاطفتها وهو استخدام لغة العيون ، فهي اللغة الوحيدة المباحة للتعبير عن المشـاعر دون إيـذاء للآخرين ، وهذا نمط استحيائي آخر يدفع المرأة إلى اختـلاس النـظرات حتـى تعبـر عمـا بداخلـها ، تقـول ليـلى العامرية : - (٧٣)

كلانا مظهر للناس بغضا

وكل عنـد صاحبه مكيـن

تبلغنا العيون بما أردنـا

وفي القلبين ثم هوى دفين

وسياق البيتين به نوع من المفارقة ، فالقارئ قد يظن من البداية أن هناك حالة من البغض المتمثل في شكل ظاهر للناس (مظهر للناس بغضـا) بين الطرفين إلا أن حالة الوجد الدفين داخل القلبين تبدو ظاهرة فـي لغـة العيون ، وما توحيه من تداعيات في هذا الموقف.

وهذا بطبيعة الحال يفسر لنا أن المرأة العربية كانت على وعي تـام بالنسق الأخلاقي للمجتمع وحالة القيد المفروضة على مثل هذه العلاقـات، فاتخذت سبيلا مغايرا للتعبير عما يدور بداخلها من حالة الهيام والشـوق ،

مستخدمه لغة العيون في ذلك ، فهي الستار الخفي ، والقناع الواقي من قيد المجتمع وأسره .

والشاعرة تركز على لغة العيون باعتبارها الوجه المقابل للتعبير عن المشاعر ليس في هذا الموقف فحسب ولكن في موقف آخر تقول:(٧٤)

وأسرار الملاحظ ليس تخفـــي

وقد تغري بذي اللحظ الظنون

وكيف يفوت هذا الناس شيء

وما في الناس تظهره العيـــون

وفي موضع آخر تخبرنا بحزنها الشديد على قيس ، وما آل إليه حاله في قولها : (٧٥)

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة

متى رحل قيس مستقل فراجع

بنفسي من لا يستقـــل برحلـــه

ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

وعلى طريقة ما هو شائع في أسس العلاقة بين الأحبة ، بذكر أحدهما للآخر مدعاة للشفاء تقول العامرية : (٧٦)

إذا مذلت رجلي بدأت بذكـــره

وأحلـــم في نومـــي به وأعيـــش

إذا ذكر المجنون زالت بذكره

قوى النفس أو كاد الفؤاد يطيش

و والله ما كاد الفؤاد يجنـــه

وإن كان صدري من هواة يجيش

وتصل حدة الصدام بين ليلى وأهلها إلى قمة ذروتها ، فتترك تهديد أهلها ، وتطالبهم بقتلها دونه ، وهو نوع من إنكار الذات أمام المحبوب، ودافعا من دوافع الخوف عليه ، تقول ليلى : (٧٧)

توعدني قومي بقتلي وقتله

قلت اقتلوني واتركوه من الذنب

ولا تتبعوه بعد قتلي ذلة

كفى بالذي يلقاه من سورة الحب

وهذه اللوعة العاطفية ، والتباريح العشقية لا تقف عند ليلى العامرية بفردها ، إنما هي حلقة خاصة بكافة الشواعر من النساء ، فعندما نقرأ كتابا مثل " مصارع العشاق " نجد فيه أحاديث العشق تغزو كل اتجاه ولا تفرق بين صغيرة ولا كبيرة من نساء العرب ، فنجد حديث الجارية ، وحديث الأم، وحديث العاشقة ، وكل حديث ترى فيه نوعا من العلاقات المشتركة بينهن جميعا فتجد لوعة الحب ، ومرارة الفراق ، واستعذاب الألم ، ومعاناة الحرمان ، وقسوة المجتمع ، والصدمة بتقاليده ، والخوف من المجهول ، إنها مجموعة من التعبيرات المسكوكة التي توحي لك بأن دراسة نموذج واحد منها يعطيك فكرة عن كافة النماذج ، وكأنك حين تقرأ لواحدة منهن تقرأ لهن جميعا .. إنها تباريح العشق التي لا تفرق بين امرأة أو رجل .. إنها تباريح الإنسان .. أليست المرأة بإنسان ؟ إنها حين تعبر إنما تجسد تعبيراتها ذلك الواقع المؤلم الذي يوضح لنا مدى ما تعانيه المرأة من ألم نفسي داخل هذا الإطار الاجتماعي الذي يفرض عليها نمطا خاصا في السلوك والشعور والتعبير ..

لقد ظلت المرأة تخشى الغد المجهول ، فقد يحمل لها نوعا مفارقا لما جبلت عليه .. لقد رأت المجتمع لا يقبل هذه العلاقة ، وليت الأمر توقف عند ذلك ، إنما رأت في الطير من يوافق هذه الفكرة وخاصة " الغراب " ففي ذكره نوع من الفرقة بين الحبيبين .. إن صاحب المصارع يورد نمطا شعريا غريبا يجسد ذلك أيما تجسيد ، وذلك عندما أمرت " لبنى " صاحبة " قيس بن ذريح " غلاما لها بشراء مجموعة من الغربان ، فلما رأتهن صدر عنها سلوك تمثل في صراخها ونحيبها ، وأنشأت تقول : (٧٨)

لقد نادى الغراب ببين ليلى

فطاب القلب من حذر الغراب

فقلت : غدا تباعد دار لبنى

وتنأى بعد ود و اقتراب

فقلت : تعست ويحك من غراب

أكلَ الدهر سعيك في تباب

لقد أولعت لا لاقيت خيرا

بتفريق المحب عن الحباب

وما استوقفني هنا ليس هذا الشعر المنسوب إليها ، وما فيه من محاورة واضطراب وتصوير يدل على إحساسها بفجيعة من وجود ذلك الطائر .

إنما الذي شدني إلى هذا الشعر وروايته هو إصرارها على شراء "الغربان" ولماذا الغراب ؟ وأدركت أنها تحاول أن تعيش في نفس الظروف التي يلقاها المحب .. فتعيش مرارة الحرمان ولذته ، والخوف من المجهول وآلامه ، إنه بحق عالم المرأة المجهول ..

وإن كنا في بداية هذا البحث قد نوهنا بأن الرجل العربي استطاع بشعره أن يرسم صورة مثالية للمرأة وصلت إلى حد فاق الخيال فإن ابن طيفور في كتابه " بلاغات النساء " يورد نمطا آخر لا يمضي على هذه الشاكلة إنما مضى على وصف المرأة لنفسها ، وهذه مخالفة للنسق الوصفي المتعارف عليه ، فالمرأة هنا لا تصف غيرها وإنما تقدم على رسم صورة لنفسها ، وكأنها استشرفت المستقبل حينما تجد كاتبا أو شاعرا يقدم ديوانه بنفسه ، ولم يخل الأمر عند المرأة من خيال .. وذلك في الرواية التي رواها الأصمعي عن جمع أعرابي لأربعة من النساء طالبا من كل واحدة منهن قولا تصف به نفسها ، وهن { كندية – غسانية – شيبانية – غنوية } فأنشدت كل واحدة منهن أبياتا تصف نفسها ،

فقالت الكندية : – (٧٩)

كأني جني النخل والزنجبيل

وصفو المدامة والسلسبيل

يزين سنا الوجه لي مبسم

كمثل اللآلي وعين كحيل

وقالت الغسانية : –

يراني إلهي إله السما

ء نصفا قضيبا ونصفا كثيبا

وألبسني ما يسود الحسود

جمالا وملحا وحسنا عجيبا

وقالت الشيبانية : -

أفوق النساء إذا ما اجتمعن

كبدر السماء نجوم الدجـــى

ويقصر عني جميع الصفـــا

ت فمن نالني نال فوق المنى

وقالت الغنوية : -

تزود بعينيك من مهجتـــي

فقد خلق الله مني الجمالا

وإذا ما تفرست في رؤيتي

رأيت هلالا وأحوي غزالا

ولعلك تتفق معي أن حديث كل واحدة منهن مختلف عن الآخر، وأن " الأنا " التي تم التعبير عنها هنا تدلل بشكل قاطع على أن المرأة حينما تتحرك الأنا بداخلها فإنها تبالغ في رسم الموقف على نحو مـــا رأينا .. وأن أنماط التصوير نابعة من الإحساس بالذات المتعالية فـــي ذلك الموقف ..

وفي كتب التراث العربي أحاديث كثيرة تجسد الواقـــع الغزلـــي للمرأة ، وتوضح مدى معاناتها في التعبير عن عشقها ، أو التصريح بغزلها ، هذا العشق والوله الذي أدى بها إلى رفض وكره كل القبائل إلا قبيلة من أحبته ، بل إنها تحب كل من ينتمي إلى قبيلة محبوبهـــا حبا وشغفا فيه ، وولها به .. وهذا ما أورده صاحب الأمالي في تغزل

أم خالد الخثعمية في جحوش العقيلي .. وقد صورت ولهها به كولـــه عفراء بعروة بن حزام .. وذلك في قولها:(٨٠)

فليت سماكيـــا يطيـــر ربابـــه

يقاد إلى أهل الغضي بزمام

ليشرب منه جحوش ويشيمـــه

بعيني قطامي أغـــر شآمي

بنفسي عينا جحوش وقميصـــه

وأنيابـــه اللاتي جـــلا ببشام

فأقسمت أني قد وجدت بجحوش

كما وجدت عفراء بابن حزام

وما أنا إلا مثلهـــا غيـــر أننـــي

مؤجلة نفســـي لوقـــت حِمام

فإن كنت من أهل الحجاز فلا تلج

وإن كنـــت نجديا فلج بســـلام

رأيت لهم سيماء قوم كرهتهم

وأهل الغضي قوم عـــليَ كرام

إننا هنا أمام لحظة فارقة في غزل المرأة العربية ، إنها لحظـــة صدق تدل على مدى تعلق الإنسان بالمكان الناتج من عشق صـــاحب المكان لقد عشقت فتفانت في عشقها الذي أوصـــلها لدرجـــة فاقـــت تصوير الشعراء – في ظني – لذلك الموقف ، فحبها لجحوش أعطاها بعدين أولهما النفسي ويتمثل بتلك الراحة المنطبعة على النفس نتيجة

هذا العشق والوله والغرام بجحوش وآخرهما الاجتماعي الذي أعطى انطباعا بحب المكان وكل من فيه وما حوله ، فلم تجعل المساحة والبعد الاجتماعي قاصرا على جزء من البادية النجدية ، بل شملها بأكملها وقد تفوقت هنا على شاعر عربي غزلي وهو " قيس بن الملوح " فعندما تعلق بليلى اكتفى بحيز المكان الذي تقطن فيه ليلى فقط ، أما هي فقد حوت المكان بأكمله ..

على أية حال إن التجربة الغزلية في الشعر النسائي تؤكد ما ذكرناه سابقا بأن المرأة قد عبرت عن غزلها وحبها بشكل مكثف ودال على مكنونها النفسي رغم قسوة المجتمع وكافة الظروف المحيطة بها.. وهو غزل خاص ليس كغزل الرجال ، فتجد عند المرأة نوعا من العفة التعبيرية وصدقا في الإحساس وقصرا في النفس فرضه عليها المجتمع وقيوده ، قل إنها نفثة امرأة تبث من خلالها تجربتها ومشاعرها .

ولا يمكن حصر كافة النماذج المتعلقة بذلك ، وإنما اكتفينا بعرض بعض النماذج التي توضح ذلك مباشرة ، وتؤكد على دخول المرأة لهذا الميدان الشعري .

إن المرأة العربية لم تقف مع ثبوت الصورة المفروضة عليها عبر الأنساق الاجتماعية أو الثقافية الموجودة في المجتمع حينذاك ولم ترض لنفسها بأن تكون في موضع التحقير أو التقليل من شأنها ، ومن ثم فقد تغيرت صورة المرأة من عصر إلى عصر، بل إننا لا نبالغ إن قلنا : إن صورة المرأة قد تتغير في العصر الواحد أكثر من مرة

تبعا للتغيرات المطروحة في المجتمع، كما أنك قد تجد صورة المرأة مختلفة من شاعر إلى آخر ، بل الأدهى أن نلاحظ وجود صورتين مختلفتين للمرأة عند شاعر واحد.

على أية حال لقد نصف الشعر المرأة في كثير من المجالات- وأصدق إنصاف لها ما نجده في ديننا الإسلامي - ولكنها تغلبت على البيئة وخرجت من قمقمها فعبرت أيما تعبير عن نفسها ومجتمعها ، وكافة الفنون الأدبية والشعرية بوجه خاص على نحو ما قدمنا في الصفحات السابقة من هذا البحث .

١١

الحنين والتعلق المكاني في شعر المرأة العربية

تدفع بعض الظروف القاسية الشعراء إلى مبارحة الديار ، بحثا عن موطن آخر طلبا للرزق أو الحاجة ، بيد أنه حينما يستقر بموطنه الجديد سرعان ما يدفعه الحنين والشوق إلى ربوعه التي فارقها ، وأهله الذين أرغم على مفارقتهم ، ولا يقتصر أمر الارتحال على شعرنا القديم فقط إنما الأمر فيه نوع من العمومية على مر العصور ، فدفع هذا الشوق والحنين ألسنة الشعراء إلى تصوير عواطفهم الصادقة تجاه أهلهم وأماكنهم .

ولك أن تتخيل مدى المعاناة النفسية التي تعلق بروح الإنسان من جراء هذه الغربة المكانية لدرجة قد تصل بالإنسان إلى المقارنة بين قتل النفس والخروج من المكان الذي ارتبط به ودرج فيه وأبلغ تصوير لذلك ما ورد في قول المولى عز وجل : " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم " (٨١) إن هذا النص المنزه عن كل نقص يقف علامة تأييد واضح على مكانة الوطن بالنسبة للإنسان، لدرجة جعلته يسوي بين قتل النفس وبين الخروج من الديار. وقد واجه العربي هذا الاغتراب المكاني وذاق من

كأسه، وليست المسألة قاصرة على الانتقال المكاني فقط بل تشمل الزواج في غير الأقارب أيضا ، ومن ثم فإن الغريب أو المرتحل يعيش في صراع قائم بين ذاته ، والبيئة المحيط به ، فينتج عن ذلك شعور بالإحباط وعدم الانتماء والسخط والقلق واليأس .

إن النماذج التي عبر عنها الرجل في هذا الجانب غزيرة ومتنوعة بين غربة مكانية أو اجتماعية أو سياسية أو عاطفية ، وقد ذكر أبو صخر الهذلي ما يبرهن على ما كان يعتلج في صدره من شوق إلى قومه ، وحنين إلى أهله الذين عفت منهم ديارهم بعد أن نزحوا عن وطنهم في تهامة ، واستبدلوا بمكة ، ومضاربهم حولها " باب اليون " وغيره من الأماكن التي هاجروا إليها ، يقول أبو صخر في ذلك : (٨٢)

فماذا ترجَى بعد آل محرِق

عفا منهم وادي رهاط إلى رحب

جلوا عن تهامى أرضنا وتبدلوا

بمكة باب اليون والربط بالعصب

إن أهم سمات هذا الاغتراب – عند غالبية الشعراء – الحنين إلى الوطن الأم بعيدا عن السبب الأساسي والدافع الأصلي من وراء الاغتراب .

والمرأة العربية أشد إحساسا بالاغتراب المكاني ، فالزواج رابطة دائمة في أغلب الأمور ، وكانت النساء يؤثرن أن يقضين حياتهن بين قومهن وفي أوطانهن ، ومن ثم فقد كن يتوجسن خيفة من الزواج في

ديار الغربة ، فإذا اضطررن إلى شيء من ذلك القبيل نظمن القصائد التي يصورن من خلالها مدى حنينهن وشوقهن إلى أوطانهن ، ويظل الوطن – فيما بعد – هدفا ليس من السهل الوصول إليه ، فتكثر من شكواها وتعبر عن تذمرها لكي تجسد تكملة رسم هذه اللوحة التي تعبر من خلالها عن مدى وأثر هذه الغربة المكانية عليها متساوية في ذلك مع الرجل ، ولا زالت أبيات الشاعرة الإسلامية ميسون بنت بحدل الكلابية التي صورت فيها حنينها إلى بادية قومها بني كلاب ترن في مسمع الزمن فلم يحل زواجها من معاوية بن أبي سفيان – في تلك الفترة – بينها وبين حنينها إلى مرابع صباها ، وكافة أماكنهم التي نمت وربت ودرجت فيها . تقول ميسون : (٨٣)

لبيت تخفق الأرواحُ فيه

أحب إلى من قصر منيف

وأصوات الرياح بكل فج

أسر إلى من نقر الدفوف

وبكر يتبع الأظعان صعب

أحب إلى من بغل زفوف

وكلب ينبح الطراق عني

أحب إلى من قط ألوف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب إلى من لبس الشفوف

والأبيات هنا لا تحتاج إلى توضيح ، ففيها من المعاناة النفسية ما تنأى عنه الجبال، وفيها من اليأس والإحباط بما يبرهن على أن رابطة الزواج على قوتها لم تستطع أن تنزع من نفسها الشوق إلى قبيلتها وأهلها وديارها وموطنها ، أو تنسيها أنها في غير أهلها ، وإن كانت في كنف زوجها " فإنها تعتبر رابطة الدم هي الرابطة الوحيدة التي تشعر معها بالألفة " [٨٤] ... وقد تكررت هذه التجربة مع شاعرة أخرى هي (أم الحسام) فقد تم زواجها من (عبد الله بن اسحق الجعفري) الذي نقلها من البادية إلى المدينة ، غير أنها ظلت تقارن بين الموضعين فكلما ذكرت باديتها تأججت بداخلها لوعة الحنين والشوق في نفسها ، وتعبر عن ألم الغربة في قولها : [٨٥]

أقول لأدنى صاحبي أسـره

وللعين دمع يحضر الكحل ساكبه

لعمري لنهى باللوى نازح القذي

نقى النواحي غير طرق مشاربه

بأجراع ممراع كأن رياحه

سحاب من الكافور والمسك شائبة

أحب إلينا من صهاريج ملئت

للعب ، فلم تملح لدى ملاعبه

فيا حبذا نجد وطيب ترابه

إذ أهضبته بالعشي هواضبه

فأقسم لا أنساه ما دمـــت حيـــة

وما دام ليـــل من نهـــار يعاقبـــه

ولا زال هذا القلب مسقى لوعة

بذكراه حتى يتـــرك الماء شاربـــه

إن المرأة العربية أدركت بأن الزواج رابطة دائمة فـــي أغلـــب الأمر، ومن ثم نما لديها هذا الإحساس الكبير بـــالاغتراب المكـــاني، فانعكس ذلك على نفسيتها ، فجاء تعبيراتها مجسدة لهذا الأثر علـــى نفسها وسلوكها ومدى إحساسها الدائم بالحنين إلى ديارها التي تربت ودرجت عليها ، فلم تنجح حياة المدن بكل ما فيها من زخرف أو لهو أو مدنية أو طقوس جديدة في محو هذا الواقع النفسي المرتبط بالمكان الأم أو الأصل الذي انحدر منه الإنسان .

إن المرأة العربية هنا لا تقل قيمة أو خيالا في تصوير ما تعانيه من اغتراب كما كان يقوم الرجل بتصوير ذلك في حالات مماثلة .

وقـــد عبـــرت وجيهة بنـــت أوس الضبية عن حنينها التـــام لوطنها في قولها : (٨٦)

وعاذلـــة تغـــدو علىَ تلومني

على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي

فما لي أن أحببت أرض عشيرتي

وأبغضـــت طرفاء القصيبـــة من ذنب

وقد تحول الظروف الاجتماعية بين المرأة وحاجتها النفسية، فلا تتمكن من التصريح المباشر بالاسم الخاص بها فنجد الرواية مثلا تقول أعرابية ، وهي تعبر عن حنينها وتعلقها بالمكان كما ورد في قول أعرابية : (٨٧)

إذا الريح من نحو العقيق تنسمت

تجدد لي شوق يضاعف من وجدي

إذا رحلوا بي نحو نجد وأهله

فحسبي من الدنيا رجوعي إلى نجدي

إن رابطة الدم والتعلق المكاني أقوى لدى المرأة العربية من أي رابطة أخرى ، ومن ثم فقد أولت اهتماما خاصا بالمكان وقيمته وأثره على نفسيتها وحياتها ومن يتتبع هذه الصورة " صورة الحنين إلى الوطن أو المكان " يجد أن المرأة ترفض كافة المغريات من أجل أن تفوز بلذة واحدة وهي العودة لذلك المكان الذي درجت .. فيه إن رابطة الدم هي الرابطة الوحيدة التي تشعر معها بالألفة والمودة ، وتحس من خلالها بقيمة الوجود وقيمة نفسها في المقام الأول .